حتى لا نخسر
رمضـــان

حُقوقُ الطبع مَحفُوظة

طبعة مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هجري - ٢٠٠٩ ميلادي

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هجري - ٢٠٢٣ ميلادي

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٩٣٣٨م

الترقيم الدولي : I.S.B.N

٩٧٨-٩٧٧-٤٥٦-١٣٣-٤

حتى لا نخسر
رمضـــان

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

حتى لا نخسر رمضان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

عندما يذهب شخص إلى الطبيب شاكيًا من علة ما، فالمتوقع أن يستمع الطبيب إلى شكواه ثم يقوم بالكشف السريري عليه، ثم يكتب له الدواء الذي يراه مناسبًا لحالته.

ولن يفوت الطبيب تذكير مريضه بطريقة أخذ الدواء؛ فهذا قبل الأكل وهذا بعده، وذاك قبل النوم.. ثم ينصحه بالانتظام في تناوله، وفي النهاية يطلب منه مراجعته بعد عدة أيام.

ومن المتوقع أن أول سؤال سيسأله الطبيب لمريضه عند المقابلة الثانية سيكون عن مدى تحسُّن حالته الصحية؛ فإن وجد تحسنًا ملحوظًا فسيطلب منه الاستمرار على أخذ الأدوية -كلها أو بعضها- مدة زمنية أخرى حتى يتم له الشفاء بإذن الله، وإن لم يلحظ هذا التحسن فسيتوجه إلى مريضه بالسؤال

عن مدى جديتــه في تناول الدواء بالطريقــة الصحيحة، فإن وجد منــه التزامًا في هذا الأمر فســيتجه تفكــيره نحو تغيير جرعات الدواء، أو اســتبداله، وكيف لا وهو يعلم بأن هدف مجيء المريض إليه هو بحثه عن الشفاء بإذن الله، ويعلم كذلك أن الأدوية ما هي إلا وسائل لتحقيق هذا الهدف.

إن العلاقة بين الأدوية والعافية تمثل العلاقة بين الوسائل والأهــداف؛ فالوســائل ليســت مطلوبة لذاتها بــل لتتحقق الأهداف من خلالها.

ومــن العجيب أن هــذا التصور لتلك العلاقة نمارســه بصورة تلقائية، وفي أمور كثيرة فيما يخص أمور دنيانا، أما أمور ديننا فالأمــر يختلف؛ بمعنى أن الأهداف في كثير من الأحوال تُنسى، وذلك حين تتحول الوسائل إلى أهداف وغايات.

حياة القلب بالإيمان هي الهدف

لقد خلقنا الله -عَزَّوَجَلَّ- وأسكننا الأرض لنقوم بمهمة عظيمة، ألا وهي ممارسة العبودية له سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

هذه العبودية لها حقيقة ينبغي أن يعيش المرء في أجوائها، وأن تظهر آثارها على سلوكه وتعاملاته..

فالعبودية لله -عَزَّوَجَلَّ- معناها الانكسار والاستسلام التام له سبحانه، وطاعة أوامره، ودوام خشيته، والشعور بالاحتياج المطلق، والافتقار التام إليه؛ ومن ثمَّ دوام سؤاله، والتمسكن بين يديه، والتوكل عليه، وإخلاص التوجه له، مع حبه، وإيثار محابه ومراضيه على كل شيء... لينعكس ذلك على السلوك فيصبح همُّ المرء فعل كل ما يُرضي مولاه، ويستجلب به رحمته وفضله وجزاءه الذي وعد به عباده المتقين؛ فيزداد سعيه لكل ما يقربه من الجنة ويبعده عن النار.

فالعبوديــة الحقيقية تعني غلبة الإيمان بالله على قلب المرء ومشاعره، فيصير حبه ســبحانه أحب الأشياء لديه، وخشيته أخوف الأشياء عنده.

.. يطمئن إليه، ويثق فيه وفي قدرته غير المتناهية، وقربه، وعلمه وإحاطته بكل شيء؛ ومن ثم يتوكل عليه ويتقيه، ويحبه، ويشتاق إليه، و....

فالتوكل على الله -عَزَّوَجَلَّ- ومحبته، وخشــيته دليل على قوة الإيمان به والعبودية له:

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧].

وكلما تمكَّن الإيمان من القلب تحســن الســلوك تبعًا لذلك، كما قال رسول الله ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[1].

(١) رواه البخاري: (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم: (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

فالإيمان هو الدافع للاستقامة وللسلوك الصحيح: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١].

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

العبادات وسائل

فإن كانت حياة القلب بالإيمان هي الهدف الذي به تتحقق العبودية لله عَزَّوَجَلَّ فكيف يصل المسلم لهذا الهدف؟!

أرشدنا الله -عَزَّوَجَلَّ- إلى الوسائل التي من شأنها أن تُبلِّغنا هذا الهدف.. هذه الوسائل هي العبادات بقسميها القلبية والبدنية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

فالعبادات أدوية ناجعة تحقق للقلب عبوديته التامة لله عَزَّوَجَلَّ..

فالصلاة من شأنها أن تُشعر المسلم بخضوعه وانكساره لربه، وهي وسيلة عظيمة للاتصال به سبحانه، ومناجاته، واستشعار القرب منه، والأنس به، والشوق إليه، فتكون

نتيجتها زيادة خضوع المشاعر لله: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وبهذا يزداد الإيمان من خلال تلك الصلاة، وتظهر آثاره في دوافع المرء وسلوكه؛ فتزداد مسارعته لفعل الخير، ويقوى وازعه الداخلي ومقاومته لفعل المعاصي أو الاقتراب منها فيحقق قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والصدقة عبادة عظيمة تقوم بمعالجة القلب من داء حب الدنيا والتعلق بها.. أي أنها تُطهِّر القلب وتزيده قوة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصيام يساعد المرء على السيطرة على نفسه وإلزامها تقوى الله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والذكر يهدف إلى تذكُّر الله.. تذكُّر عظمته وجلاله وجماله وإكرامه... فيزداد به المرء اطمئنانًا وثقة وإيمانًا: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهكذا في بقية العبادات القلبية والبدنية، والتي تُشكِّل منظومة متكاملة يتحقق من خلال القيام الصحيح بها الهدف العظيم من وجودنا على الأرض..

فما من عبادة أرشدنا الله إليها إلا وتُعد بمثابة وسيلة و«مَركبة» تنقلنا إلى الأمام في اتجاه القرب منه سبحانه؛ حتى نصل إلى الهدف العظيم في الدنيا: «**أن تعبد الله كأنك تراه**» وفي الآخرة: ﴿**وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ**﴾ [الزمر: ٦١].

تهيئة الأجواء لتحقيق الهدف

والمتأمل لتوجيهات الشرع يجد أنها تحثنا وتساعدنا على تهيئة الأجواء المناسبة للتفاعل القلبي مع العبادات؛ ومن ثم زيادة الإيمان من خلالها.

فعلى سبيل المثال: الصلاة.. نجد أن الشرع يحثنا على تفريغ الذهن من الشواغل وعدم تعلُّق القلب بشيء من شأنه أن يمنعنا من التركيز فيها، فإذا حضر الطعام مع دخول وقت الصلاة يُفضل البدء بالطعام؛ حتى يدخل المرء إلى الصلاة وذهنه غير مشغول به.

وكذلك عند مدافعة الأخبثين.. قال رسول الله ﷺ: **«لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»**[١].

ولا ينبغي للمرء أن يُسرع في خطواته إلى المسجد ليدرك الصلاة، بل عليه أن يمشي في سكينة وهدوء؛ فالإسراع من شأنه أن يجعله يذهب إلى الصلاة وهو مضطرب فيصعب عليه جمع قلبه..

والحث على التبكير في الذهاب للمسجد قبل إقامة الصلاة له دور مهم في صرف شواغل الدنيا عن الذهن..

وكذلك فإن الحث على تذكُّر الموت قبل الصلاة من شأنه أن يستجيش المشاعر نحو الرجاء والطمع في عفو الله والخوف والرهبة من عقوبته..

يقول رسول الله ﷺ: **«اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا»**[٢].

---

(١) رواه مسلم: (١/ ٣٩٣ برقم: ٥٦٠).

(٢) رواه البيهقي في الزهد (برقم: ٥٢٧)، وحسنه ابن حجر كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٢٢٦).

كل ذلك وغيره يهيئ المسلم للاستفادة من الصلاة وما فيها من قراءةٍ للقرآن، وذكر، ودعاء، في تحقيق هدفها بزيادة الإيمان وتحسين السلوك..

غياب الرؤية

عندما تغيب هذه الرؤية ويصبح الهدف هو أداء العبادة، بأي شكلٍ كان، فإن ثمرة العبادة لا تكاد تظهر للوجود؛ ومن ثمَّ يظل العبد في مكانه؛ فلا يتقدّم في مضمار سباق السائرين إلى الله، ولا يجد حلاوة الإيمان، ولا يشعر بتحسن ملحوظ في سلوكه، لتكون النتيجة: إنسانًا ذا شخصيتين متناقضتين؛ فقد تجده كثير الصلاة والصيام والحج والاعتمار، ومع ذلك تجده لا يؤدي الأمانة، ولا يتحرى الصدق، ويسيء معاملة الآخرين، ويحسدهم على كل خير يبلغهم.. يُصاب بالهلع والفزع إذا ما تعرَّضت أمواله وممتلكاته أو دنياه لمكروه...

هذه المظاهر السلبية وغيرها تدل على أن صاحبها لم يَسْتَفِد من عباداته، ولم يتحسن إيمانه من خلالها؛ وبالتالي لم ينتج منها الأثر الصحيح الذي من شأنه أن يصلح السلوك والمعاملات..

وتأكيدًا لهذا التشخيص، لك -أخي القارئ- أن تتأمل قول رسول الله ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**»(١).

وكذلك قوله ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ**»(٢).

وقوله ﷺ: «**لَيُجَاءَنَّ بِأَقْوَامٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ مِثْلُ جِبَالِ تِهَامَةَ، حَتَّى إِذَا جِيءَ بِهِمْ جَعَلَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ هَبَاءً، ثُمَّ قَذَفَهُمْ فِي النَّارِ**»، فقال سالم: يا رسول الله بأبي أنت وأمي جَلِّ لنا هؤلاء القوم حتى نعرفهم، فوالذي بعثك بالحق إني أتخوف أن أكون منهم، فقال: «**يَا سَالِمُ أَمَا إِنَّهُمْ كَانُوا يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ، وَلَكِنَّهُمْ إِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْحَرَامِ وَثَبُوا عَلَيْهِ، فَأَذْحَضَ اللهُ تَعَالَى**

(١) رواه أحمد في المسند (١٤/ ٤٤٥ برقم: ٨٨٥٦)، وابن ماجه (٢/ ٥٩١ برقم: ١٦٩٠)، واللفظ له، والحاكم (١/ ٥٩٦ برقم: ١٥٧١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه على شرط البخاري.

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥١٧ برقم: ٣٤٧٩)، والبزار (١٧/ ٣٠٧ برقم: ١٠٠٦١)، والحاكم (١/ ٦٧٠ برقم: ١٨١٧)، وقال: حديث مستقيم الإسناد، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَعْمَالَهُمْ»[١].

فالمقصد من العبادة ليس فقط أداءها من الناحية الشكلية، بل المهم والأهم هو أداؤها بطريقة تحقق هدفها؛ فإراقة دماء الهَدْي في الحج على سبيل المثال ليست مقصودة لذاتها، بل المقصود هو زيادة الإيمان والتقوى من خلال أداء هذه الشعيرة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

إحسان العمل أولًا

من هنا نقول بأنه ينبغي علينا أن نهتم بتحسين العمل ليتحقق من خلاله مقصود العبادة، ويزداد الإيمان في القلب..

وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن رجب:

كان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون الإكثار منه؛ فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان، أفضل من الكثير مع الغفلة وعدم الإتقان.

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٧٨).

وقال بعضهم: إن الرجلين ليقومان في الصف، وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض.

ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره: صلاة ركعتين في تفكُّر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ[١].

إن القلب هو محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثمَّ فإن الأعمال تتفاضل عنده -سبحانه- بتفاضل ما في القلوب من إيمان ومحبة وإخلاص وخشية له... مع الأخذ في الاعتبار ضرورة موافقة هذه الأعمال للشرع.

ولئن كان السير إلى الله والقرب منه إنما يكون بالقلوب، فإن وسائل ذلك هي العبادات والأعمال الصالحة التي دلَّنا عليها القرآن والسنة، ولكي تتم الاستفادة من هذه الوسائل في تحقيق الهدف لا بد من تحسينها والاهتمام بتفاعل القلب معها، أما إذا تم التعامل معها على أنها غايات فسيصبح همّ المرء إتيانها والإكثار منها بأي شكل كان، دون النظر لحضور القلب وانتفاعه بها، فيؤدي هذا إلى غياب الأثر الإيجابي للعبادات والأعمال الصالحة في حياة الفرد.

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٤٢٣).

سل الواقع

ولعل الواقع الحالي للمسلمين خير دليل على أن هناك حلقة مفقودة بين العبادات وأثرها؛ فعلى الرغم من كثرة عدد المصلين في المساجد، وعلى الرغم من كثرة المتطوعين بالصيام والصدقات، والمتنفلين بالحج والعمرات، إلا أننا لا نرى الأثر المتوقع لهذه العبادات... فما أسهل أن تجد مصليًا يكذب من أجل تحقيق مصلحة أو دفع مضرة! وما أكثر أن تجد قارئًا للقرآن متقنًا لتلاوته يسيء معاملة أهله ويذيقهم الويلات تلو الويلات!... وما أكثر وما أكثر!

إن وجود هذا الانفصال بين العبادات وأثرها مردُّه -بالأساس- لتعاملٍ غير صحيح مع العبادات بحيث يفرغها من مضمونها الحقيقي، ويقصرها فقط على الناحية الشكلية.

ولعل من أسباب هذا التعامل:

- تسليط الضوء على الأحاديث الواردة في فضائل الأعمال، وعدم ربطها بمقاصدها في تحقيق العبودية وزيادة الإيمان..
- كذلك فإن من أسباب هذا التعامل: سهولة القيام بالطاعات من الناحية الشكلية فقط.. فالاجتهاد في تحقيق

التجـــاوب القلبي مع البدني يحتـــاج إلى جهد -قد لا يريد الكثيرون بذله- وبالتالي يستسهلون ذلك التعامل الخاطئ.

- ومنها أيضًا: الشـــعور بالرضا عن النفس عند إنجاز (كَمٍّ) معتبر من العبادات، فالملاحظ أنه كلما نجح المرء في الانتهاء من أداء عمل شعر بالرضا عن نفسه، وهذا الشعور يدفعه دفعًا إلى الاستمرار في هذا الطريق.

ولعـــل أبلغ مثـــال يؤكد هذا الأمر هو تـــلاوة القرآن في رمضان؛ فالتســـابق في إنجاز أكبر عدد من الختمات دون فهم ولا تفكر من أسبابه الشـــعور بالزهو والرضا عن النفس كلما ختم المسلم ختمة، فيدفعه ذلك للبدء في ختمة أخرى وسرعة الانتهاء منها، وهكذا...

تحصيل الثواب

ولئن كانت أســـباب اهتمامنا بالقيام بظاهر العبادة دون جوهرها كثيرة ومتعددة؛ إلا أن أهم تلك الأسباب هي الرغبة في تحصيل الثواب المترتب عليها.

فعلى سبيل المثال قراءة القرآن: هذه العبادة العظيمة التي من شأنها أن تُحيي القلب وتُنيره وتشفيه من أسقامه، قد تحوَّلت على ألسن الكثير من المسلمين إلى ألفاظ تُقرأ بلا فهم ولا تفكر ولا تأثر، بل أصبحت الغاية من التلاوة هي قطع المسافة بين فاتحة المصحف وخاتمته في أقل وقت ممكن؛ أملًا في تحصيل الثواب، وذلك عملًا بقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ**»(١).

ومما يثير العجب أن هناك العديد من الآيات والأحاديث التي تتحدث عن تدبر القرآن كهدف من وراء التلاوة، وتربط بين التلاوة وبين تحقيق هذا الهدف، وتمدح من يفعل هذا، وتذم من يقرؤه بلا فهم أو تدبر كقوله تعالى: ﴿**كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ [ص: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**﴾ [الفرقان: ٧٣].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٧٥ برقم: ٢٩١٠) وقال: حسن صحيح.

وتأمل قول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو يوضح له سبب نهيه لقراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام: «**لَا يَفْقَهُهُ مَنْ يَقْرَؤُهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»(١).

ورأى رسول الله ﷺ يومًا بعض الصحابة يقرؤون القرآن فقال لهم: «**الْحَمْدُ للهِ كِتَابُ اللهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَخْيَارُ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ، اقْرَءُوا اقْرَءُوا، اقْرَءُوا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَقْوَامٌ يَقْرَءُونَ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ كَمَا يُقَامُ السَّهْمُ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ، وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»(٢).

ومن أقواله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ**»(٣).

وعندما نزلت آيات سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

(١) مسند أحمد: (١١/ ١٠٤ برقم: ٦٥٤٦) وأصله في الصحيحين.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (١/ ٢٨٠ برقم: ٨١٣)، وأحمد (٣٧/ ٥٠٩ برقم: ٢٢٨٦٥)، وأبو داود (٢/ ١٢٣ برقم: ٨٣١)، وابن حبان (٣/ ٣٦ برقم: ٧٦٠).

(٣) صحيح مسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٧).

﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ، قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»(١).

وتأمل معي قوله ﷺ:

«سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلافٌ وَفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يحسنون القول ويسيؤُون الفعل، يقرؤُون الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ...»(٢).

وأقوال الصحابة في ضرورة تدبر القرآن كثيرة، منها قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ كَهَذِّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوا كَنَثْرِ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُونُ هَمُّ أَحَدِكُمْ مِنَ السُّورَةِ آخِرَهَا»(٣).

وقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ »(٤).

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠).

(٢) مسند أحمد (٢١/ ٥١ برقم: ١٣٣٣٨) (بنحوه)، ومسند البزار(١٣/ ٤٥٣ برقم: ٧٢٢٥) (بلفظه)، والمستدرك (٢/ ١٦١ برقم: ٢٦٤٩) (بنحوه).

(٣) مختصر قيام الليل (ص: ١٣٢).

(٤) مختصر قيام الليل (ص: ١٤٨).

وقول الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اقْرَأِ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ. فَإِنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرَؤُهُ»[١].

وقال رجل لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاثٍ، فقال: «لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقَرَةَ فِي لَيْلَةٍ فَأَدَّبَّرُهَا وَأُرَتِّلُهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ كَمَا تَقُولُ»[٢].

وهذه السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تسمع رجلًا يقرأ القرآن قراءة سريعة، فقالت: «مَا قَرَأَ هَذَا، وَمَا سَكَتَ»[٣].

إذن فالنصوص التي تؤكد ضرورة تدبر القرآن وتفهُّمه وترتيله كثيرة، فلماذا لا يتم التركيز إلا على الأحاديث التي تسرد الثواب المترتب على القراءة فقط دون غيرها؟!

.. لا شك أن من أهداف تلاوة القرآن تحصيل الأجر، ولكن من خلال القراءة المتأنية المترسلة التي تؤثر في المشاعر والتي تزيد الإيمان وتُذكِّر القارئ بما ينبغي عليه فعله أو تركه، فيصير القرآن حجة له لا عليه.

---

(١) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٣٤)، والإمام أحمد في الزهد (برقم: ١٦٤٤).

(٢) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٥٧).

(٣) الزهد لعبد الله بن المبارك (ص: ٤٢٢ برقم: ١١٩٧).

يقـــول ابن القيم: «فَلَـــو علم النَّاس مَا فِي قِـــرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّى مر بِآيَة وَهُوَ محتاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه كررها وَلَو مائَة مرّة وَلَو لَيْلَة، **فقراءة آيَة بتفكـــر وتفهم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم وأنفـــع للقلب وأدعـــى إلى حُصُـــول الإيـــمان وذوق حلاوة الْقُرْآن**»[1].

أين الثمرة؟!

لقد جرَّبنا القراءة السريعة، وكان هَمُّ الواحد منا الانتهاء من ختم القرآن، بـــل كان بعضنا يتنافس في عدد مرات الختم، خاصة في رمضان، فأي استفادة حقيقية استفدناها من ذلك؟! ماذا غيَّر فينا القرآن؟! أيُّ تحسُّن حدث في أخلاقنا ومعاملاتنا نتيجة كثرة القراءة باللسان والحناجر فقط؟!

إحسان ثم إكثار

ليس معنى هذا الـــكلام هو الزهـــد في الأجر والثواب المترتب على أداء العبادات، بل المقصد هو إحسان العبادة أولًا،

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٨٧).

مــع الاجتهاد في حضور العقل وتفاعل القلب معها، ثم لنكثر منها بعد ذلك ما شئنا، فنجمع بين الأمرين وننال الخيرين.

.. بل إن الثواب المترتب على الأعمال يرتبط ارتباطًا وثيقًا بحضور القلب أثناء القيام بها...

يقول ابن القيم: «وكل قول رتب الشــارع ما رتب عليه من الثــواب، فإنما هو القول التام، كقولــه ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي يَوْمٍ: سُــبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَــرَّةٍ، حُطَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ -أَوْ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ- وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**» وليس هذا مرتبًا على مجرد قول اللســان.. نعم من قالها بلسانه، غافلًا عن معناها، معرضًا عن تدبرها، ولم يواطئ قلبه لســانه، ولا عرف قدرهــا وحقيقتها، راجيًا مع ذلــك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل مــا في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض»[1].

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٣٣٩، ٣٤٠).

الفهم الصحيح أولًا

إن الفهم الصحيح لمقاصد العبادات، وإدراك أنها وسائل لا غنى عنها لإحياء القلب بالإيمان، هو الخطوة الأولى على طريق الاستفادة الحقيقية من تلك العبادات، وسيكون من نتاج ذلك الفهم -بإذن الله- البحث عن كيفية إحسان العبادة.

ففي الصلاة: سيكون الهمُّ هو حضور القلب فيها، وهذا يستدعي التبكير إلى المسجد، والتفكر في الآيات المقروءة، والاطمئنان في الركوع والسجود، وكثرة المناجاة والدعاء والتبتل و...

وفي الذكر: سيُقرنه الذاكر بالتفكر فيه، فيستغفر مستحضرًا ذنوبه وتقصيره في جنب الله، نادمًا على ما أسلف، مستحضرًا عَظمة مَن عصاه، وسيقرن التسبيح متفكرًا في مظاهر عظمة الله وقدرته وإبداعه، كما يقول الحسن البصري: «إِنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ لَمْ يَزَالُوا يَعُودُونَ بِالذِّكْرِ عَلَى الْفِكْرِ وَبِالْفِكْرِ عَلَى الذِّكْرِ حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ قُلُوبُهُمْ فَنَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ»[1].

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٦).

حتى لا يضيع علينا رمضان

إذا أسقطنا هذا المفهوم على رمضان، فإن تعاملنا معه سيختلف عن ذي قبل وسنجتهد في الانتفاع الحقيقي به.

إن هذا الشهر يمثل فرصة ذهبية لإحياء القلب وعمارته بالإيمان وانطلاقه في رحلة السير إلى الله؛ لِـمَا قد اجتمع فيه من عبادات متنوعة مثل: الصيام، والصلاة، والقيام، وتلاوة القرآن، والصدقة، والاعتكاف، والذكر، والاعتمار، و....

هذه العبادات إذا ما أحسنَّا التعامل معها فإن أثرها سيكون عظيمًا في إحياء القلب وتنويره وتأهيله للانطلاق في أعظم رحلة: «**رحلة السير إلى الله**».

أما إن تم التعامل معها بصورة شكلية محضة فسيبقى الحال على ما هو عليه.. ستبقى الأخلاق هي الأخلاق، والنفوس هي النفوس، والاهتمامات هي الاهتمامات... والواقع هو الواقع، وستستمر الشكوى بعد رمضان من الفتور وضعف الهمة والتثاقل نحو الأرض...

الغنيمة الباردة

ولعل من أهم الأمور التي تُعين المسلم -بإذن الله- على الاستفادة من رمضان هو إدراكه أن هذا الشهر يُعد بمثابة (الغنيمة الباردة) التي يمكنه من خلالها إيقاظ الإيمان وتجديده في قلبه والتزود بالتقوى، وأن هذه الغنيمة لا يمكن إدراكها من خلال القيام بأشكال العبادات دون تحرك القلب معها، وهذا يستدعي منه تفرغًا -إلى حد ما- من الشواغل التي تُشوّش على عقله، وتصرفه عن الحضور والتجاوب القلبي مع الأداء البدني للعبادات.

ويحتاج الأمر كذلك إلى عدم إجهاد البدن قدر المستطاع؛ فكلما أُجهد البدن ثقلت العبادة وغاب أثرها على القلب.

ومما يدعو للأسف أن البعض يظن أن قيامه بنوافل العبادات -كصلاة القيام- وهو في حالة من الإجهاد البدني والشعور الشديد بالتعب أفضل من عدم قيامه بها؛ لأنه لو تركها وأخلد للراحة بصورة مؤقتة فستفوته تلك النافلة مع الجماعة، وهذا -بلا شك- نتيجة لغياب الفهم الصحيح لحقيقة العبودية، ولقد مر علينا قول رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ**

مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ»[1] وليس معنى هذا هو سرعة الاستسلام للشعور بالتعب والإجهاد، ولكن لا بد من إعطاء البدن حقه من الراحة حتى نستطيع -بعون الله- القيام بالعبادة وعقولنا وقلوبنا حاضرة معها قدر المستطاع.

ولك -أخي القارئ- أن تتأمل قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ**﴾ [النساء: ٤٣] ففي مرحلة التدرج في تحريم شرب الخمر، كان التوجيه بعدم شربها قبل الصلاة حتى لا تُذهب العقل فلا يدري المصلي ما يقول؛ أي أن التركيز في الصلاة وفهم ما يقوله المرء أو يسمعه أمر ضروري يتحقق من خلاله مقصودها.

فماذا تقول عمن يدخل إلى الصلاة وهو شارد الذهن ويغلبه النعاس فيبدأ الصلاة وراء الإمام برفع يديه بالتكبير ثم يفاجأ بالتسليم؟! هل بهذا الشكل يزداد الإيمان والتقوى؟!

وقس على هذا من يقرأ القرآن وهو مُتعب وهمّه أن ينتهي من ورده.. هل بهذا يزداد الإيمان بالقرآن كما أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ؟!

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٤٣ برقم: ٧٨٧).

في رمضان العمل مع أنفسنا أهم واجباتنا

فإن قلت: ولكن ماذا أفعـــل وفي رمضان تزداد الأعمال الخدمية والاجتماعية مما يؤثر بالسلب على إتقان العبادة؟

إن الحركة وســـط الناس مطلوبة لتوجيههم ودعوتهم إلى الله، ومساعدتهم، وإسداء الخير لهم، ولكي يستفيد المسلم من هذه الحركة لا بد وأن تنطلق من إيمان حي، ونفس مزكاة، فإن لم يحدث هذا كانت النتيجة سلبية كما قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَـــى نَفْسَهُ مِثْلُ الْفَتِيلَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا**»[(١)].

ويقول الرافعـــي: إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة لمن حولك وتترك الفوضى في قلبك[(٢)].

وشـــهر رمضان فرصة عظيمة لشـــحن القلب بالإيمان، وترويض النفـــس وتزكيتها، فـــإن ضاعت من المســـلم هذه الفرصة فأي حال سيكون عليه قلبه وإيمانه؟!

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٢/ ٨٨٠) وعزاه للطبراني في الكبير، قال محققه: أخرجه الخطيب في اقتضاء العلم العمل (برقم: ٧١).

(٢) وحي القلم للرافعي (٢/ ٤٢).

فمن لم يُحْي قلبه في رمضان فمتى يحييه؟

ومن لم يتزود بالإيمان في رمضان فمتى يتزود؟

من هنا نقول: إنه ينبغي علينا الاستفادة من شهر رمضان على المستوى الفردي أكثر من المستوى الاجتماعي حتى نستطيع أداء واجباتنا الاجتماعية طيلة العام.

وليس معنى هذا هو الاعتكاف التام عن الناس طيلة الشهر، ولكن المقصد هو تخفيف الجرعة، وهذا يستدعي منا إنهاء ما يمكن إنهاؤه من واجبات اجتماعية وخدمية قبل قدوم رمضان أو بعد رحيله، والإقلال -قدر المستطاع- من الزيارات العائلية، والإفطارات المجمعة، وكيف لا وشهر رمضان **أيام معدودات** سرعان ما تنقضي؟!

.. لقد كان رسول الله ﷺ يعتكف في كل عام العشر الأواخر من رمضان، وفي العام الذي تُوفي فيه اعتكف عشرين يومًا.. أي ثلثي الشهر، فماذا تقول بعد ذلك وأي حجة ستسوقها لتبرر لنفسك عدم التركيز في العبادة وتحصيل الزاد من خلال منظومة العبادات في شهر رمضان؟!

إن التخطيط الجيد لتنفيذ الأعمال الاجتماعية، والمساعدات الخيرية، والحرص الشديد على الوقت وتنظيمه يساعد -بإذن الله- على تحقيق مصلحة الفقراء دون الإخلال ببرنامج الاستفادة الحقيقية من رمضان وبهذا نجمع الخيرين.

البنا يؤكد

يقول رحمه الله مؤكدًا هذا المعنى:

أيها الإخوة الفضلاء: أحييكم بتحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

في هذه الليلة التي تجاوز ختام شعبان نختم هذه السلسلة من الأحاديث حول نظرات في القرآن -كتاب الله تبارك وتعالى- وإن شاء الله في العشر الأول من شوال نعود إليها، ونستفتح بذلك موسمًا جديدًا من مواسم المحاضرات، وسيكون موضوعها إن شاء الله (**نظرات في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي**).

ورمضان شهر شعور وروحانية وتوجُّه إلى الله، وأنا أحفظ فيما حفظت أن السلف الصالح كانوا إذا أقبل رمضان

ودَّع بعضهم بعضًا حتى يلتقوا في صلاة العيد، وكان شعورهم: هذا شـــهر العبادة وشـــهر الصيام والقيام، فنريد أن نخلو فيه لربنا، والحقيقة أني حاولت أن أوجد فرصة نقضي فيها حديث الثلاثاء في رمضان فلـــم أجد الوقت الملائم، فإذا كنا قد قضينا معظم العام في نظرات في القرآن، فأنا أحب أن نقضي رمضان في تطبيق هذه النظرات..

أيها الإخوة:

لقد تحدثنا طويلًا عن عاطفـــة الحب والتآخي التي ألّف الله بها بين قلوبنا، والتي كان من أبرز آثارها هذا الاجتماع على الله، وإذا كنا ســـنُحرم هذا اللقاء أربعة أســـابيع أو أكثر فليس معنى هـــذا أن تخمد العاطفة أو تخبو، أو ننســـى أبدًا ما كانت تفيض به قلوبنا ومشـــاعرنا في هذا المجلس الطيب من أسمى معـــاني العزة والتآخي في الله، بل أنا أعتقد أنها ســـتظل متمثلة ومشـــتعلة في نفوسنا حتى نحظى بلقاء كريم بعد هذه الإجازة إن شـــاء الله، فإذا جاء أحدكم يصلي العشـــاء ليلة الأربعاء لي رجـــاء أن يدعو لإخوانه بالخير، فلا تنســـوا هذا، ثم أحب أن تتذكروا أننا إذا كانت عاطفتنا ســـتتعطَّش إلى هذا اللقاء خلال

هذه الأسابيع، فأحب أن تعلموا بأنها ستروى من معين أفضل وأكمل وأعلى، وهـــو الاتصال بالله تبارك وتعالى، وهو خير ما يتمناه مؤمن لنفسه في الدنيا والآخرة...)[1].

وفي الختـــام نســـأل الله -عَزَّوَجَلَّ- أن ينفعنا بهذا الشـــهر الكريم، وأن نكون ممن غفر لهم وأعتقهم من النار، والحمد لله رب العالمين.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

(١) مقالات الإسلاميين في رمضان لمحمد موسى الشريف بتصرف يسير.

فهرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمة: حتى لا نخسر رمضان.....٥
حياة القلب بالإيمان هي الهدف.....٧
العبادات وسائل.....٩
تهيئة الأجواء لتحقيق الهدف.....١١
غياب الرؤية.....١٣
إحسان العمل أولًا.....١٥
سل الواقع.....١٧
تحصيل الثواب.....١٨
أين الثمرة؟!.....٢٣

الموضوع **الصفحة**

إحســـان ثم إكثار..... ٢٣
الفهم الصحيح أولًا..... ٢٥
حتى لا يضيع علينا رمضـــان..... ٢٦
الغنيمة البـــاردة..... ٢٧
في رمضان العمل مع أنفســـنا أهم واجباتنـــا..... ٢٩
البنا يؤكـــد..... ٣١
الفهـــرس..... ٣٥